مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الأندلسيون في إدارة المرابطين
التوظيف السياسي والإيديولوجي

أ. د. محمد حقي
أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال – المملكة المغربية

مُلَخّص

يدور المقال حول حضور موضوع الأندلسيين في إدارة المرابطين المركزية ودوافع استخدامهم على الرغم من حرصهم الشديد على تخصيص مناصبها لأبناء قبيلهم الصنهاجي عامة واللمتوني خاصة. وأسعفتنا المصادر المتوفرة؛ وخاصة منها كتب التراجم والتاريخ العام وبعض الدراسات المعاصرة، بكم مهم من المعطيات المتنوعة ساعدت على مناقشة الموضوع وتحليله وبالتالي حل هذه إشكالية. وقد مر تحليل الموضوع أولاً، بالتذكير بظروف دخول المرابطين الأندلس وضمها لدولتهم، وثانيًا، بالتوقف عند أهم الوجوه التي خدمت المرابطين مركزيًا في ميداني الكتابة الديوانية والاستشارة الفقهية وإبراز خصالها ومؤهلاتها، وثالثًا، بالبحث عن الأسباب التي جعلت المرابطين يتنازلون عن هذه المهام لهؤلاء الأندلسيين. وخلصنا في تحليلنا إلى أن هناك أسبابًا ظاهرة ومباشرة ترتبط بحاجة الدولة بعد توسعها وتضخمها وتشعب علاقاتها الدولية إلى كتاب ومفتين من مستوى عال يستجيبون للحاجيات الطارئة للدولة في المراسلة والفتوى، ودوافع خفية تتعلق بالرغبة في معرفة سير الأندلسيين عن قرب، وضمان خضوع السكان للدولة تقليدا لزعمائهم، وإشعار الأندلسيين بكون الدولة دولتهم وأنهم ليسوا غرباء فيها، مما سيضمن الاستقرار لحكمهم في الأندلس.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٨ يناير ٢٠٢٤
تـاريخ قبـول النشـر: ١٦ فبراير ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الأندلس؛ المرابطون؛ يوسف بن تاشفين؛ علي بن يوسف؛ تاريخ الأندلس

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.261405

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد حقي. "الأندلسيون في إدارة المرابطين: التوظيف السياسي والإيديولوجي".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٢٩ – ٤٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: haqimed211@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

في أواخر القرن (٥هـ/١١م) دخل المرابطون الأندلس استجابة لاستنجاد أهلها بهم نتيجة الهجوم الشرس للإسبان بزعامة قشتالة وعجز ملوك الطوائف عن مواجهتهم، لكن تطور الأحداث السياسية والعسكرية وإلحاح عامة السكان دفع المرابطين إلى إسقاط ملوك الطوائف وضم البلاد إلى إمبراطوريتهم. وفتح إدماج الأندلس في الدولة المرابطية الباب أمام الأندلسيين للمشاركة في تدبير شؤونها بدخول الإدارة ليس فقط على الصعيد المحلي، بل أيضا على الصعيد المركزي بالعاصمة مراكش. وتوفر المصادر الأندلسية والمغربية؛ وخاصة كتب التراجم، معطيات مهمة حول مجموعة من الشخصيات التي انضمت إلى المرابطين واشتغلت في جهازهم الإداري، وسنعمل على تحليل محتواها بحثا عن حل إشكالية الموضوع التي تتمحور حول إبراز حجم هذا الحضور الأندلسي وتحديد المبررات التي دفعت المرابطين إلى السماح للأندلسيين بمشاركتهم في إدارتهم المركزية ومخالفة قاعدة احتكار لمتونة وصنهاجة لها. وسنقارب الموضوع من خلال العناصر التالية:

-ضم المرابطين للأندلس
-مهام الأندلسيين في الإدارة المركزية المرابطية
-خلفية توظيف المرابطين للأندلسيين

أولاً: ضم المرابطين للأندلس

منذ أن ضم المغاربة بقيادة طارق بن زياد الأندلس إلى الدولة الإسلامية، تحملوا عبء حمايتها من الخطر المسيحي الآتي من الشمال بمرابطة القبائل البربرية/الأمازيغية بالثغور خاصة الثغر الأوسط كحاجز أمام هذا الخطر، أو بالانخراط في الجيش؛ كمرتزقة أو عناصر مجندة، في عهدي الإمارة والخلافة الأموية، أو بتنظيم حملات جهادية انطلاقا من المغرب خاصة في القرن (٤هـ/١٠م)، أو التحاق بعض المحتسبين المغاربة للمرابطة في الثغور الأندلسية[١]. ولما اشتد الخطر المسيحي في القرن (٥هـ/١١م) لم تجد الأندلس من سند غير المغرب الحليف والحامي التقليدي للبلاد.

وفي هذا الوقت كان المرابطون قد أوشكوا على استكمال توحيد المغرب فطارت سمعة قوتهم العسكرية في الآفاق، وظهروا بمظهر القوة الكبرى والأولى في الغرب الإسلامي، وتطلعت إليهم الشعوب، ورجا الجميع الانضمام إليهم أو؛ على الأقل، الاستفادة من مساعدتهم ودعمهم. وكانت الأندلس في هذا الوقت تمر بأصعب أوقاتها، حيث كانت تعيش بين سندان جور ملوك الطوائف الضعاف وتعسفهم ومطرقة قشتالة ألفونسو السادس التي لم تعد تقنع بالأتاوات التي فرضتها على كل ملوك الطوائف، بل أرادت أن تأخذ البلاد منهم بالكامل، لذلك كثفت من غاراتها النهبية التي يتضرر منه السكان قبل الحكام. وأمام هذا الوضع الصعب توجه الأندلسيون؛ سكانا وحكاما، لطلب النجدة والدعم من المرابطين.

وقد مرت علاقة الأندلس بالمرابطين بثلاثة مراحل رئيسة:

مرحلة الاستنجاد والاستجابة:

بدأت منذ (٤٧٤هـ/١٠٨١م) عندما وفد على يوسف بن تاشفين علماء وأعيان أندلسيون يشتكون من جور قشتالة وتكالبها عليهم وعجز ملوكهم عن رد عدوانها، فوعدهم بالمساعدة والدعم[٢]. وبعدهم؛ وخاصة بعد سقوط طليطلة بني ذي النون عام ٤٧٨هـ، كاتبه ملوك الطوائف يتقدمهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية والمتوكل على الله بن الأفطس صاحب بطليوس وعبد الله بن بلقين الزيري صاحب غرناطة[٣]. فاستشار يوسف زعماء المرابطين والعلماء وكاتبه عبد الرحمن بن أسباط فوافقوا كلهم على تقديم الدعم والمساعدة وفق شروط حددوها، لذلك استجاب لطلب الملوك الثلاثة وقرر الجواز بعد أن اتخذ الإجراءات الضرورية لذلك[٤].

مرحلة المساعدة العسكرية:

نفذ يوسف بن تاشفين وعده للأندلسيين واجتاز المضيق انطلاقا من سبتة عام (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) وواجه ألفونسو السادس في الزلاقة وانتصر عليه انتصارا كبيرا، وبعد ذلك عاد إلى المغرب وترك الأندلس بعدما أوصى ملوك الطوائف بالوحدة والتخلي عن صراعاتهم. لكن شوكة ألفونسو السادس لم تكسر تماما، فعاد إلى الإضرار بالأراضي الإسلامية في شرق الأندلس

انطلاقا من حصن لييط قرب لورقة الذي احتله وعمره بالرجال والسلاح وجعله منطلقا لغاراته التي عجز الأندلسيون عن التصدي لها، فعاد ملوك الطوائف للاستنجاد بيوسف واجتاز إليه المعتمد وفاوضه في ذلك، فوافق على تقديم الدعم مرة أخرى، وعبر المضيق مرة ثانية عام (٤٨١هـ/١٠٨٨م)[٥]. لكن حصار حصن لييط كشف عن أنانية ملوك الطوائف، واهتمامهم بمصالحهم الشخصية أكثر من اهتمامهم بمصير البلاد، واستمرار صراعاتهم الثنائية، وتواطؤهم مع العدو ضد يوسف بن تاشفين، فاضطر إلى فك الحصار والعودة بسرعة إلى مراكش غاضبا وحنقا عليهم[٦].

مرحلة ضم بلاد الأندلس:

بعد سنتين عاد يوسف إلى الأندلس عام (٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، فاتجه رأسًا إلى الشمال وحاصر طليطلة وأفسد أحوازها بدون مشاركة ملوك الطوائف، ثم فك الحصار وعاد أدراجه. وعرج على غرناطة ومالقة فأخذهما ونفى عبد الله وتميم ابني زيري إلى المغرب. ثم ترك قائده سير بن أبي بكر ليضم باقي الممالك، وعاد إلى سبتة حيث ظل يتتبع أخبار ذلك عن قرب. بدأ أخذ المرابطين للبلاد بطريف وجيان في نهاية سنة ٤٨٣هـ. وفي السنة الموالية ضموا قرطبة وبياسة وأبذة وحصن البلاط والمدور وشقورة وقرمونة وإشبيلية ورندة ومارتلة والمرية وشلب ويابرة وبطليوس ومرسية ودانية وشاطبة، وبذلك صارت معظم الأندلس تحت سلطتهم، وقتل كثير من أمراء الطوائف، ونفي ابنا زيري والمعتمد بن عباد إلى المغرب، بينما فر أبو مروان معز الدولة ابن المعتصم بن صمادح إلى المغرب الأوسط لاجئا عند بني حماد[٧].

وفي عام (٤٩٥هـ/١١٠٢م) ضمت بلنسية على يد الأمير مزدلي، وفتحت حصون شرق الأندلس مربيطر والمنارة وسهلة بني رزين والبونت وشنتمرية[٨]. لقد ضم المرابطون كل الأراضي الإسلامية في الأندلس ولم يبق خارج سيطرتهم إلا إمارة سرقسطة التي بقيت تحت سلطة المستعين بن هود، وتركها المرابطون حاجزا بينهم وبين المسيحيين خاصة مملكة أراغون بتنسيق مع المستعين قبل أخذها من ابنه عبد الملك عماد الدولة خليفته بطلب من الفقهاء والسكان في نهاية عام (٥٠٣هـ/١١١٠م)[٩].

وقد لخص أحد الباحثين طبيعة ضم المرابطين للأندلس فقال: "هكذا كان ضم المرابطين للأندلس استجابة لنداء الشعب بإيعاز من الفقهاء لإنقاذ الأندلس من السقوط المحتم بيد الإسبان"[١٠]. لقد صارت الأندلس جزءا من المجال المرابطي، وأصبح الأندلسيون مواطنيها مما سيفتح أمامهم أبواب الدولة لخدمتها والمشاركة في تدبير شؤونها.

ثانيًا: الأندلسيون في إدارة المرابطين

تميزت إدارة المرابطين بالبساطة وقلة المناصب، فلم يتخذوا وزراء بالمعنى المعروف ولم يلقبوا به أحدا[١١]، وكاد الحديث في إدارتهم يقتصر على أمير المسلمين ومجلس صنهاجة وكاتب الأمير ومستشاريه من الفقهاء. واعتبر المرابطون الدولة مسألة قبلية وملك القبيلة المؤسسة، لذلك احتكرت الأعمال الإدارية ومعها العسكرية من قبل صنهاجة عامة ولمتونة وبني ورتنطق محور عصبيتها خاصة. فقد عين ولاة الأقاليم وقادة الجيش من لمتونة خاصة ومن صنهاجة عامة، وينطبق هذا الأمر على المغرب والأندلس على حد سواء[١٢]. ولم يخرج عن هذه القاعدة إلا الكتابة والشورى حيث فسح المجال لرجال من المغرب والأندلس لدخولهما، وغصا بوجوه قامت بهما أحسن قيام وأغنت التجربة المرابطية فيهما. فمن هي الوجوه الأندلسية التي شاركت في ديوان كتابة المرابطين ومجلس شوراهم؟

١/٢-كتاب الديوان الأندلسيون

أجمل عبد الواحد المراكشي الحديث عن حضور الأندلسيين في ديوان كتابة المرابطين بدقة كبيرة حينما كتب: "ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك" وأضاف: "اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"[١٣]. وعند تتبع الأسماء التي حضرت في ديوان الرسائل استنتج المعاصرون أن الأندلسيين سيطروا بالكامل على هذا الميدان واحتكروه بكل مكوناته (رؤساء ومساعدون)[١٤]. وعلى الرغم من حديث المصادر عن كثرة الأندلسيين في

هذا الديوان فلم نتعرف إلا على سبعة منهم ممن تولوا رئاسته، وهم:

عبد الرحمن بن أسباط: أندلسي من المرية، بدأ بداية بسيطة حيث احترف الكتابة بديوان المرية، ولما سمع بسيطرة يوسف بن تاشفين على المغرب اجتاز إلى العدوة واستقر بمراكش في عام (٤٧٢هـ/١٠٧٩-٨٠م) قبل ضم الأندلس بحوالي عقد من الزمان[١٥]. ودخل في خدمة زوجة الأمير زينب النفزاوية التي استكتبته، ولما توفيت ثبته يوسف واستخدمه فصعد نجمه ونال الشهرة والمجد[١٦]. ووصف ابن الخطيب ابن أسباط؛ على الرغم من سخريته من خطه وعباراته، بأنه "كان رجلا حصيفا، سكونا، عاقلا، محدي الجاه، حسن الوساطة، شهير المكانة"[١٧]، وأضاف عنان أنه كان يتقن الأمازيغية؛ التي لا يعرف يوسف غيرها، وأنه كان ناصحا أمينا للأمير في شؤون الأندلس وأحوال ملوك الطوائف فحظي بثقة كبيرة منه[١٨]. وكانت وفاته مفاجئة بسبتة عام (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)[١٩].

ابن القصيرة أبو بكر محمد بن سليمان الولبي الإشبيلي: عمل في ديوان المعتضد العبادي، ولما تولى المعتمد ولاه الوزارة والكتابة، وأرسله سفيرا إلى جيرانه من ملوك الطوائف، كما كان رسوله إلى يوسف بن تاشفين عندما استنجد به. ولما ضم المرابطون اشبيلية اعتزل العمل، وفوجئ في عام (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) باستدعاء يوسف بن تاشفين له إلى مراكش ليتولى ديوان الانشاء بعد وفاة كاتبه عبد الرحمن بن أسباط، وكان قد تعرف على مقدراته واختبره عندما جاءه سفيرا من المعتمد وفي بلاط إشبيلية. واستمر في مهمته حتى وفاة يوسف فثبته ابنه علي ليواصل عمله إلى أن وافته المنية عام (٥٠٨هـ/١١١٤م)[٢٠]. وابن القصيرة "أحد رجال الفصاحة، والحائز قصب السبق في البلاغة، كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب"[٢١]. وهو أيضا "من أهل الأدب البارع والتفنن في أنواع العلوم" و"رأس أهل البلاغة في وقته"[٢٢].

ابن الجد محمد بن عبد الله الفهري اللبلي الإشبيلي أبو القاسم: درس الفقه والحديث والأدب، وعينه المعتمد بن عباد وزيرا لابنه الراضي والي الجزيرة الخضراء ورندة، ولما أسقط المرابطون مخدومه وقتلوه عاد إلى بلده لبلة وتولى الشورى والفتوى بها[٢٣]، "إلى أن استدعاه أمير المسلمين فأجاب بحكم الطاعة وأناب، وأراه الغناء المستعظم والمناب بكتب تهزم الكتائب بأغراضها، وتروق العيون بإيماضها"[٢٤]. وكان استدعاؤه عام ٥٠٨هـ بعد وفاة ابن القصيرة، واستمر في الديوان حتى وفاته عام (٥١٥هـ/١١٢١م)[٢٥].

ابن أبي الخصال أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقي الشقوري: ولد عام (٤٦٥هـ/١٠٧٣م) من أسرة مغمورة بفرغليط إحدى قرى شقورة، وسكن قرطبة وأخذ عن رجالها. وتعلق في بدايته بأبي يحيى محمد بن الحاج والي يوسف بن تاشفين على قرطبة، ثم استكتبه الأمير علي بن يوسف؛ ربما، في عام ٥٠٣هـ[٢٦]. وقال عنه ابن بسام: هو "أحد أعيان كتاب الزمان، وحامل جملة الاحسان، بحر معرفة وتعبره السفن، ولو جرت بشهوتها السفن، وطود علم لا ترقى إليه الفطن، ولو سما بها الامساء والإصباح، وأدب لا تعبر عنه الألسن" و"له بيان لا يتعاطاه ناظم ولا ناثر". وقد نال عند علي بن يوسف مكانة "بحيث لا تشير الأصابع إلا إليه"[٢٧]. وقال المراكشي إنه كان أكبر كتاب علي بن يوسف مكانة "وحق له ذلك، إذ هو آخر الكتاب، وأحد من انتهى إليه علم الآداب، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب، واليد الطولى"[٢٨]. وقد استغل نفوذه لتعيين أخيه أبي مروان معه في الديوان. واستمر على حاله حتى عام (٥٢٣هـ/١١٢٩م) عندما انهزم المرابطون في قلعة قليرة قرب جزيرة شقر شرق الأندلس، فطلب منه الأمير علي بن يوسف أن يوبخهم، فكتب رسالة أفحش فيها، فغضب منه علي وحنق عليه[٢٩]، لكن لا يبدو أنه عزله لأننا وجدناه في عام (٥٢٦هـ/١١٣١م) يكتب كتاب تولية تاشفين بن علي على قرطبة[٣٠]. وكانت وفاته بمراكش عام (٥٣٩هـ/١١٤٤م). أما أخوه أبو مروان فمات في السنة التي بعدها في قرطبة[٣١].

ابن عبدون عبد المجيد بن عبد الله أبو محمد الفهري اليابوري: من أهل يابرة غربي بطليوس، خدم المتوكل على الله ابن الأفطس، ورحل في بدايته إلى المعتمد لكنه لم يحظ بالقبول منه، فعاد إلى بلده واختص بالمتوكل في الحل والترحال وأكثر من مدحه إلى أن قتله المرابطون فرثاه[٣٢]. وبعد موت مخدومه لازم بلده يابرة[٣٣] قبل أن يلتحق بكتابة الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين بإشبيلية، ثم استدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف لديوانه[٣٤]. و"كان أديبا مقدما، شاعرا، عالما بالخبر والأثر ومعاني الحديث، أخذ الناس عنه"[٣٥]، ووصف ابن سعيد علو كعبه فقال: "منتهى البيان" و"نخبة العلاء، وبقية أهل الإملاء (...) فاق الأفراد والأفذاذ، ومشى في طرق الابداع والوخد والإغذاذ"[٣٦].

وتوفي بيابرة أثناء زيارة لأقاربه هناك في عام (٥٢٧هـ/١١٣٣م)[٣٧].

محمد بن سعيد بن عبد العزيز ابن القبطرنة: "أحد كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين"[٣٨]، وهو من حاشية المتوكل ابن الأفطس.

ابن عبد الغفور عبد الغفور بن محمد أبو محمد: إشبيلي خدم المعتمد بن عباد، وكان كاتبا بمراكش عام (٥٣١هـ/١١٣٧م). واتهمه ابن خاقان بالتقعير والتهور والحقد والحسد[٣٩]. هذه هي الوجوه الأندلسية الرئيسية التي تولت الكتابة في ديوان رسائل المرابطين على عهدي يوسف بن تاشفين وابنه علي، ويمكن أن نخرج من هذا العرض بمجموعة من خصائص الكتاب الأندلسيين في ديوان المرابطين وأهمها:

- انتماء هؤلاء الكتاب إلى كل جهات الأندلس التي خضعت للمرابطين (وسط-غرب-شرق-جنوب-شرق) وخاصة منها حواضر إشبيلية وبطليوس والمرية وقرطبة/ شقورة مع هيمنة للمدينتين الأوليين عاصمتي بني عباد وبني الأفطس.
- خمسة من هؤلاء خدموا المعتمد بن عباد (٠٣) والمتوكل ابن الأفطس (٠٢).
- اثنان منهم لم يسبق لهم أن خدموا ملوك الطوائف.
- خضوع معظم هؤلاء للتجربة في دواوين ولاة المرابطين وقوادهم بالأندلس قبل الالتحاق بديوان أمير المسلمين بمراكش.
- أغلب الكتاب من أسر مشهورة بالأندلس.
- بعض الكتاب من أسر مغمورة رفعها المرابطون وخاصة ابن أسباط وابن أبي الخصال.
- نبوغ الكتاب الأدبي نثرا وشعرا، ورقي بلاغتهم وفصاحتهم.
- الثقافة الواسعة للكتاب إذ شملت الشعر والنثر والتاريخ، والقرآن والحديث والفقه.

٢/٢-مستشارو المرابطين من الفقهاء الأندلسيين

وجه عبد الله بن ياسين؛ مؤسس دولة المرابطية وواضع تقليد خضوع المرابطين لأحكام الشرع، المرابطين نحو تقريب الفقهاء وتكريمهم وإخضاع معظم أمورهم لفتاويهم. وقد تحدث عن مكانة الفقهاء الرفيعة عندهم الأقدمون وبعدهم المحدثون، حيث كتب المراكشي: "اشتد إيثاره [يوسف بن تاشفين] لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرًا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء (...) فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغًا عظيمًا"[٤٠]، وقال ابن الأثير: "يميل [يوسف بن تاشفين] إلى أهل الدين والعلم، ويكرمهم ويصدر عن رأيهم" ولما خلفه ابنه علي "ازداد في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة ولان قلبه لها، ويظهر ذلك عليه"[٤١]. وقد اعتمد المرابطون في استشاراتهم في بداية أمرهم على فقهاء من المغرب، ولما ضموا الأندلس دخل الأندلسيون إلى هذه الدائرة، وصار لهم نفوذ أكبر من نظرائهم المغاربة[٤٢]. وقد ركز المرادي في توجيهه لأبي بكر بن عمر على أهمية المستشار وخطورة دوره وضرورة حسن اختياره وفق شروط دقيقة تحافظ على حق المستشير والمستشار[٤٣]. واحتفظت المصادر ببعض الأسماء الأندلسية التي كان لها ثقل في توجيه بعض قرارات الدولة الحاسمة، ومنها ابن حمدين وابن رشد الجد وأبي بكر ابن العربي ومالك بن وهيب.

ابن حمدين محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي أبو عبد الله: قرطبي من بيت علم وجاه ونفوذ ونباهة وفضل. "كان من أهل التفنن في العلوم والافتنان بها وبمذاكرتها. وكان حافظًا ذكيًا فطنًا، أديبًا شاعرًا لغويًا أصوليًا"[٤٤]. ولي قضاء قرطبة عام (٤٩٠هـ/١٠٩٧م) بسياسة محمودة مقرونة بحزم وصرامة حتى وفاته عام (٥٠٨هـ/١١١٥م)، وكانت ولادته عام

(٤٣٠هـ/١٠٣٩م)[٤٥]. وهو الذي حمل طلب فقهاء الأندلس إلى علي بن يوسف بشأن الحكم بمنع تداول كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي وإحراقه، ونجح في إقناعه بذلك، واستصدر أمره بإحراقه في قرطبة وفاس وكل حواضر المغرب[٤٦]. كما أنه طلب من يوسف بن تاشفين ترك يهود أليسانة وعدم إخراجهم منها والاكتفاء بما فرض عليهم من مال[٤٧].

ابن رشد الجد، محمد بن أحمد بن رشد المالكي القرطبي أبو الوليد: روى عن كثيرين وجمع علما كثيرا حيث "كان فقيها عالما حافظا للفقه، مقدما فيه على جميع أهل عصره، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه (...)، نافذا في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم، مع الدين والفضل والوقار والحلم". وله مؤلفات كثيرة منها "البيان والتحصيل"، ودرس بقرطبة.

تولى قضاء الجماعة والصلاة بقرطبة عام (٥١١هـ/١١١٧م)، واستعفى من القضاء فأعفي عام ٥١٥هـ بعد الهيج لسبب اختلف حوله[٤٨]. و"كان الناس يلجأون إليه، ويعولون في مهماتهم عليه" لحسن خلقه ولين جانبه وحبه لنفع خاصته وأصحابه[٤٩]. وهو الذي توسط لمحمد بن عبد الله بن محمد أبي جعفر الخشني المرسي عند علي بن يوسف، فأعفى الأمير أباه من المغارم ورفع الطلب عن أملاكه وأمر بالبر به[٥٠].

وسافر إلى مراكش في صفر من عام (٥٢٠هـ/١١٢٦م)؛ على الرغم من شيخوخته، "فتلقاه أمير المسلمين علي بن يوسف بالمبرة والكرامة" واستقبله عدة مرات شاوره خلالها في قضايا عديدة احتفظت المصادر بثلاثة منها[٥١]:

- معاقبة معاهدي غرناطة المتواطئين مع المسيحيين وإجلاؤهم عن الأندلس، فأجلاهم الأمير علي بن يوسف إلى المغرب إلى ناحيتي سلا ومكناس.
- عزل أخيه أبي الطاهر تميم عن الأندلس وتقديم غيره.
- تسوير مدينة مراكش للاحتماء من غارات المهدي ابن تومرت وأتباعه الموحدين.

وقد تجاوب أمير المسلمين مع هذه المشورات ونفذ مضمونها فورا لأنه كان "مقدما عند أمير المسلمين، عظيم المنزلة، معتمدا في العظائم أيام حياته"[٥٢].

وعاد ابن رشد إلى قرطبة في شهر جمادى الأولى فمرض مرض موته حيث توفي في شهر ذي القعدة. وكانت ولادته عام (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)[٥٣].

أبو بكر ابن العربي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي: من بيت شرف ونبل وولاية حيث كان أبوه مقربا من المعتمد بن عباد وعضوا في مجلسه ووالياه على ولايات شريفة، وكان جده لأمه وزيرا للمعتضد. ولما سقطت إشبيلية في يد المرابطين رحل عبد الله ابن العربي الأب ومعه ابنه محمدًا هذا إلى المشرق عام (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)[٥٤].

ولد أبو بكر عام٤٦٨ أو (٤٦٩هـ/١٠٧٧م)، ونشأ في أجواء إشبيلية المعتمد بن عباد وسط أبناء الحاشية الحاكمة[٥٥]، ورحل مع أبيه إلى المشرق، وانخرط في حلقات العلم متقلبا بين الشام (القدس) والعراق (بغداد) والحجاز (مكة-المدينة) ومصر (القاهرة) والإسكندرية، والتقى شيوخا كثرا جمع منهم علما واسعا[٥٦]. ولما توفي أبوه بالإسكندرية عام (٤٩٣هـ/١١٠٠م)، قرر العودة إلى الأندلس، ونزل بلده إشبيلية حيث استقبل بحفاوة[٥٧]. قدم أبو بكر إشبيلية بعلم كثير تقول المصادر إنه لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، ويجمع كل من ذكروه على أنه "كان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدما في المعارف كلها، متكلما في أنواعها نافذا في جميعها"[٥٨]. ونال شهرة في المغرب والمشرق حتى لقب بخزانة العلم[٥٩].

اشتغل أبو بكر ببلده وبقرطبة بتدريس الفقه والأصول والتفسير، وألف مؤلفات كثيرة وجيدة، وتولى الشورى بإشبيلية بلده، ثم قضاء جماعتها عام (٥٣٨هـ/١١٤٤م)، لكنه صرف عنه بعد وقت قصير لصرامته الشديدة واصطدامه مع العامة التي ثارت عليه ونهبت بيته، وتفرغ بعد ذلك لنشر العلم[٦٠]. وعلى الرغم من هذه الصرامة فقد قيل عنه إنه كان خلوقا، حسن العشرة، لين الكنف، وفيا بالعهد، قوي الاحتمال، كثير الملح في درسه[٦١]. ومات أبو بكر عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م) قرب فاس عند عودته ضمن وفد بلده إشبيلية من مقابلة

الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي الكومي، ودفن بفاس[٦٢].

وقبل أن ننهي الحديث عنه يبدو لنا من الضروري الحديث عن سفارته إلى بغداد لحساب يوسف بن تاشفين، وما أثارته من نقاش. أكدت بعض المصادر أن يوسف بن تاشفين بعث ابن العربي الأب وابنه أبي بكر سفيرين إلى الخليفة العباسي ليطلبا توليته على البلاد التي استولى عليها في المغرب والأندلس بتوصية من علماء الأندلس، فما مدى مصداقية هذا الخبر؟ فابن خلدون يقول إنه "خاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد، وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبي بكر، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما على نظره من الأقطار والأقاليم"[٦٣]. أما النويري فقال إن يوسف بعث قوما من أهله يطلب التولية من الخليفة العباسي[٦٤].

واختلف الباحثون المعاصرون حول مدى صحة بعث يوسف بن تاشفين لابني العربي في سفارة إلى خلافة بغداد العباسية، فمال المشارقة إلى تأكيدها وتأييد خبر ابن خلدون مدعمين كلامهم بالرسائل التي حملها أبو بكر ابن العربي إلى أمير المسلمين من الخليفة ومن أبي حامد الغزالي ومن أبي بكر الطرطوشي[٦٥]، أما المغاربة فاتخذوا موقفا نقديا ومنطقيا. فالكتاني يرى أن كلام ابن خلدون عن سفارة ابني العربي منقوض لأنهما إنما ذهبا إلى المشرق فرارا من يوسف مستدلا على ذلك بكون الوالد بقي في المشرق حتى موته، أما الابن فعاد بعده وتوجه إلى إشبيلية بلده وليس إلى مراكش، كما أن الدولة حجرت على أملاكهما مدة غيابهما ولم يسترجعها أبو بكر؛ بعد عودته، إلا بوساطة الحافظ أبي علي الصدفي[٦٦]. أما سعيد أعراب مؤلف كتاب "مع أبي بكر ابن العربي" فرفض ذلك ورأى أن الرحلة وسياقها لا يشيران إلى أن ابني العربي قد ذهبا إلى المشرق سفيرين ليوسف بن تاشفين[٦٧].

ويتضمن نص رحلة أبي بكر ابن العربي بعض الإشارات التي قد توضح هذا الأمر، فهو يقول[٦٨]:

"فدعت الضرورة إلى الرحلة، فخرجنا والأعداء يشمتون بنا" "وأرى أن التمكن من ذلك [طلب العلم] في جنب ذهاب الجاه والمال، وبعد الأهل بتغير الحال، ربح في التجارة" "فخرجنا مكرمين، أو قل مكرهين؛ آمنين، وإن شئت خائفين، ففررت منهم لما خفتهم". ويظهر من هذه الإشارات أن ابني العربي سافرا فرارا من المرابطين ودون رغبة منهما، ويبرر ذلك كون الأب عبد الله أحد رجال المعتمد بن عباد المقربين؛ وربما، كان من الرافضين للمرابطين والمتمسكين بولاء بني عباد. ويضاف إلى هذا دليل منطقي وهو مدة الرحلة التي قاربت عقدا من الزمان، وهذا يتعارض مع سفارات الملوك التي تتطلب الإسراع في تبليغ رسائلهم والعودة بأجوبتها وليس البقاء في المشرق لطلب العلم والتعمق فيه. فحركة ابني العربي لا توافق حركة السفير المستعجل. فكيف نبرر الرسائل التي عاد بها ابو بكر من المشرق؟

إن ابن العربي الأب قد خبر السياسة ودروبها وتعلم أساليب الملق والدهاء السياسيين، فعندما ضاقت به السبل في المشرق ولم يصل إلى مراده في استعادة مجده العبادي كما أكد ابن خاقان[٦٩]، بدأ يفكر في العودة إلى بلده الأندلس؛ وحتى يتجنب غضب المرابطين فكر في وسيلة لإرضائهم ووضع مخططا دقيقا لتحقيق غايته. وبدأ مخططه هذا بالدعاية ليوسف بن تاشفين بمكة في موسم حج عام (٤٨٩هـ/١٠٩٦م)[٧٠]؛ وهو يعلم علم اليقين أن هناك مغاربة وأندلسيين سيحضرون الموسم وسينقلون أقواله إلى المرابطين، ثم انتقل ثانية إلى بغداد ووجه رسالة إلى الخليفة العباسي يثني فيه على يوسف ويطلب مرسوما لتوليته على البلاد التي يحكمها بالمغرب والأندلس وهو ما حصل عليه بسهولة لأن الخلافة العباسية الضعيفة محتاجة إليه أكثر من يوسف بن تاشفين، ولم يكتف بذلك بل توجه إلى علماء مسلمين مشهورين في عصره فحصل منهم على فتاوي تؤيد عمل يوسف وحكمه للمغرب والأندلس وتوجهه في حكمه، وهما أبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي[٧١]. وقد عاد ابن العربي بهذه الرسائل كحزام أمان يحتمي به إذا فكر المرابطون في البطش به، ولم يذهب لعرضها أولا،

بل ذهب إلى إشبيلية بلده حيث استقبل بحفاوة؛ وهذا سلاح آخر لمواجهة المرابطين، وبعد ذلك سافر إلى مراكش ليقدم ما جاء به ليوسف بن تاشفين ليمهد لنفسه السبيل لنيل المجد والحظوة عند السلطان، وهذا أمر معروف عنه حيث قيل عنه إنه "كان يدرس وبغلته عند الباب، ينتظر الركوب إلى السلطان"[٧٢].

وخلاصة الكلام إن ابني العربي لم يذهبا إلى المشرق سفيرين، ولكنهما حصل على التولية والفتاوي ليوسف تملقا وحماية لنفسيهما من غضبه وبحثا عن الحظوة عنده، وشاء القدر ألا يستفيد الأب من ذلك لينفرد الابن ببركته ومجده.

مالك بن وهيب: مالك بن يحيى بن وهيب بن أحمد بن عامر الأزدي أبو عبد الله، إشبيلي أصله من حصن لورة. ولد بإشبيلية عام (٤٥٣هـ/١٠٦١م) وتوفي بمراكش عام (٥٢٥هـ/١١٣٠م). وذكر ابن بشكوال أن له رواية يسيرة، وأن الدراية أغلب عليه من الرواية، وأنه "أحد رجال الكمال والارتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها"[٧٣]. وأضاف ابن سعيد أنه "فيلسوف المغرب، ظاهر الزهد والورع"[٧٤]. استدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف إلى مراكش واتخذه جليسا وأنيسا، وكلفه بمناظرة المهدي محمد بن تومرت[٧٥]. وهو الذي أوصى بسجنه بعد مناظرته عام (٥١٤هـ/١١٢٠م) وحذر من خطره، لكن الأمير لم يأخذ برأيه[٧٦].

بعد استعراض ملامح شخصيات مستشاري المرابطين من الفقهاء الأندلسيين يمكن أن نحدد أهم مميزاتهم كالتالي:

انحدار هم من قرطبة عاصمة العلم في الأندلس وإشبيلية التي نافستها في عهد بني عباد.

انتماؤهم لأسر ذات جاه ونفوذ وفضل وثروة وزعامة في مدنها.

معرفة واسعة بالعلوم الشرعية خاصة الفقه، والقدرة على الفتوى والمناظرة، والسمعة الواسعة في الأندلس والمغرب، بل وفي المشرق.

تولي أعلى مناصب القضاء (قضاء الجماعة)، وهو المنصب الذي يؤهل في الأندلس للزعامة السياسية.

لجوء الناس إليهم للتوسط لهم عند السلطة المرابطية ونجاحهم في تحقيق رغباتهم.

تقديم استشاراتهم للحكام المرابطين في قضايا خطيرة: منع "الإحياء" وإحراقه وقضية يهود أليسانة وإجلاء المعاهدين وتسوير مراكش وإعفاء أبي الطاهر تميم أخ أمير المسلمين من ولاية الأندلس وسجن ابن تومرت.

وتثبت كل هذه الخصائص أننا أمام شخصيات نافذة علميًا وسياسيًا واجتماعيًا.

ثالثًا: توظيف المرابطين للحضور الأندلسي في إدارتهم

اتضح أعلاه أن الأندلسيين سجلوا حضورهم في أجهزة الدولة المرابطية المركزية في ميدانين إثنين هما: الكتابة الديوانية والاستشارة الفقهية. فلماذا هذا الاختيار؟ وكيف وظفه المرابطون لصالحهم؟

إذا بدأنا بالكتابة الديوانية، وإذا عدنا إلى تاريخ الدولة الإسلامية، نجد أن ديوان الرسائل احتل موقعا مميزا في أجهزة الدولة منذ عهد الدولة الأموية وبلغ الأوج مع الخلافة العباسية، ونفس التطور عرفه في الأندلس مع الأمويين حيث اشتهر كتابهم بالبلاغة ورفعة الأسلوب ورقي المعاني، وانتقل ذلك إلى ملوك الطوائف فكثر الكتاب في عهدهم، وتنافسوا في رسائلهم، وتباهى بهم الأمراء وقربوهم وأغدقوا عليهم الأموال. وهذ هو الواقع الذي وجده المرابطون.

وقد حدد الكاتب المشهور عبد الحميد[٧٧] مكانة الكتاب في الدولة فقال: "جعلكم [الله] معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة، بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون"[٧٨]. وحدد شروطا لمهنة الكتابة أهمها: الحلم والفهم والإقدام والإحجام والعفاف والعدل والإنصاف وكتمان الأسرار والوفاء والعلم بالنوازل والعلم الواسع (قرآن-فرائض-عربية-خط-شعر-تاريخ-حساب) والعقل والأدب والتجربة والقناعة والترفع عن الصغائر وتجنب النميمة والسعاية والتواضع وتجنب

الكبر والسخافة.[٧٩] ويبرز من هذه العناصر العبء الكبير الذي يحمله الكاتب؛ سواء أثناء تكوينه أو وقت عمله، ودوره المحوري في الدولة التي يخدمها.

ويضيف ابن خلدون بعض الشروط ويفصل في بعض من تلك التي سبق ذكرها، فيكتب: "واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها"[٨٠].

ولم يكن المرابطون بعيدين عن معرفة أهمية الكتابة الديوانية وخطورتها، فمنذ عهد أبي بكر بن عمر اللمتوني نجد مستشاره المرادي الحضرمي يقول له: "كاتبك لسانك (...) وأقل ما يحتاج إليه في الكاتب أن يكون فصيح اللسان، حسن الخط، عارفا بالأدب، كاتما للسر (...) وإذا كان الكاتب فصيحا أبان عن مراد مستكتبه، وأظهر الباطن من حجته، وكسر القوى من شبهات خصمه، لأن الكاتب الماهر يصور الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، حتى يشكل ذلك على الحذاق"[٨١].

ويمكن أن نستنتج أن الرسائل ومن ورائها كتابها هي واجهة الدولة ومنها يتعرف عليها أصدقاؤها وخصومها على حد سواء، وبها تقنعهم بقوتها وتمدنها. ولهذا فستكون الدولة المرابطية في أشد الحاجة إلى كتاب ديوان على مستوى عال لتثبت قوتها بالقلم كما أثبتتها بالسيف. لقد صار المرابطون القوة الأولى في غرب العالم الإسلامي (المغرب والأندلس)، وحصلوا على تفويض من الخلافة العباسية للحكم باسمها مما يعني ارتباطهم بالمشرق أيضا، وبالتالي حاجتهم إلى المراسلة مع كل دول العالم الإسلامي وفهم خطاباتها والرد عليها بخطابات تشرفهم وتبلغ مرادهم. كما كان على الدولة المرابطية مخاطبة الأندلسيين بأسلوب لا يقل قيمة عن أسلوب ملوك الطوائف الذين أسقطتهم[٨٢]. وكان كتاب الأندلس؛ خاصة ممن خدموا ملوك الطوائف (بنو عباد- بنو الأفطس) واكتسبوا التكوين المناسب وخبروا عالم المراسلة الديوانية واكتسبوا تجاربها، المؤهلين للقيام بتلك المهمة الصعبة، ولهذا استدعاهم المرابطون وقربوهم ووضعوا ديوان رسائلهم بعد الاختبار بين أيديهم.

لكن دور هؤلاء الكتاب لا يقتصر على الكتابة، بل هم أيضًا أحسن مصدر لأخبار الأندلس وأسرارها وسير أهلها وطرائق معاملتهم[٨٣]. وتحتفظ المصادر بنموذج لذلك عندما نصح عبد الرحمن بن أسباط يوسف بن تاشفين بالاحتياط لنفسه من غدر الأندلسيين قبل الجواز إلى الأندلس ومطالبة المعتمد بن عباد بالتنازل له عن الجزيرة الخضراء لتكون قاعدته الخلفية[٨٤]. والأكيد أن كل الكتاب أمدوا المرابطين بأخبار أخرى لم تتسرب إلى أصحاب المصادر للطبيعة السرية لعمل الكتاب أو أنهم تغافلوا عن ذكرها. واستخدم المرابطون أيضًا هذه الشخصيات المشهورة عند الأندلسيين لتضمن لهم تبعية باقي الأندلسيين لأن الناس تبع لزعمائهم، وأيضا لإقناع الأندلسيين بأن الدولة دولتهم وهم مواطنون يحظون بالحق في المشاركة في تسييرها وإدارتها[٨٥]. وقد اختاروا أشهرهم، وخضع معظمهم لاختبار أولي في دواوين الولاة بالأندلس قبل الالتحاق بديوان أمير المسلمين بمراكش، كما أنهم حرصوا على حضور ممثلين عن مختلف مناطق البلاد مع تفضيل أبناء الإمارات الأكثر شهرة[٨٦]: إشبيلية وبطليوس والمرية وشقورة/قرطبة. وفي هذا تثبيت لسلطة الدولة واستقرارها في الأندلس.

ونستخلص في الأخير أن توظيف هؤلاء الكتاب كان لضرورات عملية ارتبطت بالحاجة إلى كتاب على مستوى عال من البلاغة والثقافة والخبرة، وضرورات سياسية/إيديولوجية أملتها الرغبة في كسب قلوب الأندلسيين وإقناعهم بالسلطة المرابطية. ولا يختلف حال الفئة الثانية المستخدمة؛ وتضم الفقهاء المستشارين، عن حال سابقيهم، لكنه أكثر أهمية وخطورة. فقد رأينا أعلاه أن المرابطين كانوا يقربون الفقهاء ويفضلونهم ويستشيرونهم في كل أمورهم منذ بداية أمرهم مع عبد الله بن ياسين الفقيه المالكي المدبر والمقرر والمنفذ الذي كان يستشير علماء المصامدة ويغدق عليهم الأموال. ولما استنجد بهم الأندلسيون استفتوا

الفقهاء قبل التدخل في البلاد، واعتمدوا على رأيهم قبل إسقاط ملوك الطوائف، بل ولجأوا إليهم في قضايا كثيرة كما بينا أعلاه.

بناءً على هذا فلجوء المرابطين إلى استشارة هؤلاء الفقهاء الأندلسيين هو استمرار لتقليد راسخ عندهم، لكن الجديد هو أنهم لجأوا إلى شخصيات تملك مؤهلات علمية عالية (تكوين عميق في العلوم الشرعية- القدرة على الفتوى-المعرفة بالفلسفة)، وتتولى مناصب عليا في البلد (قضاء الجماعة-الصلاة-الشورى-الفتوى)، وتحظى بسمعة واسعة في الأندلس والمغرب، بل وفي المشرق، وتنتمي إلى المركز المرجعي للفقه في الأندلس وهي قرطبة التي يتحاكم ملوك الطوائف إلى فقهائها على الرغم من الانقسام السياسي[٨٧]. وكل هذه الخصال تعطي لفتاويهم واستشاراتهم قوة أكبر وضمانة قبول أقوى عند الأندلسيين وغيرهم مما يسهل مرورها.

والفقهاء المستشارون أيضًا من بيوت جاه وسلطة وعلم معروفة عند الأندلسيين الذين يبجلونهم ويلجأون إليهم في قضاء حوائجهم وبلوغ أغراضهم، وتقريب هذه العناصر هو ضمان لتبعية أتباعهم، واحترامهم وتوقيرهم يعني ضمان الدعاية المباشرة وغير المباشرة للسلطة المرابطية في الأندلس. فهم بمثابة عنصر تثبيت للسلطة المرابطية وترسيخها في الأندلس.

تكلم القدامى وبعدهم المحدثون عن خضوع المرابطين للفقهاء واستنامتهم إلى آرائهم وتوجيهاتهم، لكن أليس في الأمر تجنيا عليهم وتسرعا في الحكم؟ يظهر لنا أن المرابطين كانوا أذكى مما تصوره من انتقصوهم بهذا الأمر، إذ يظهر أنهم قد فهموا عقلية عصرهم بشكل جيد؛ وهي العقلية التي تعطي لعلماء الشرع مكانة عالية وتخضع لتوجيهاتهم وآرائهم وتعتبرها أوامر إلهية، لذلك قرروا؛ عن وعي أو بدونه، استغلال هذه الميزة لصالحهم بتمرير مشاريعهم بسهولة عن طريق الفقهاء. فكانوا يلجؤون بطريقة ما إلى تقديم اقتراحات ويطلبون فتوى الفقهاء فيها، وبعد صدورها تظهر وكأنها نابعة من الشرع وخاضعة لحكمه. ويمكن ملاحظة ذلك في مجموعة من المقترحات المشهورة (العفو عن أهل قرطبة-إجلاء المعاهدين-عزل أبي طاهر تميم-تسوير مراكش-العفو عن يهود اليسانة-دخول الأندلس-التبعية للخلافة العباسية...).

لقد كان هناك تواطؤ خفي وصامت بين الفقهاء والمرابطين استغله كل طرف لصالحه، حيث ضمن المرابطون خضوع البلاد واستقرارها وحصل الفقهاء على الجاه والتبجيل والمال.

كانت استشارة الفقهاء الأندلسيين وسيلة لكسب فتاوي قوية ومتينة وضامنة للأجماع، ولتثبيت حكم المرابطين بالأندلس، ولضمان خضوع السكان واستقرار الأحوال.

خَاتِمَةٌ

استخدم المرابطون كتابا وفقهاء مستشارين أندلسيين استجابة لحاجة ظاهرة وملحة تخص سير الدولة اليومي، والتواصل مع الرعايا والرؤساء والجيران والأقران، والبث في القضايا الطارئة بشكل موافق للشرع ومقنع للخاص والعام داخليا وخارجيا، ومن أجل حاجة خفية تتعلق بالدعاية للحكم المرابطي، وإبراز تمدن الدولة، وإقناع الأندلسيين بشرعية هذا الحكم وبحقهم في الدولة كمواطنين كاملي الحقوق مما سيثبت الأوضاع ويعمم الاستقرار.

الإحالات المرجعية:

(١) حقي محمد، **البربر في الأندلس**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٧، ص.٦٨-٧٠ و٤٧-٥٦ و٢٠٢-٢١٠.

(٢) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص.٣٣ وابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ضبط خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ج٦، ص.٢٤٨.

(٣) **الحلل الموشية**، ص.٣٣-٣٤ و٤٥-٤٨.

(٤) نفسه، ص.٤٩-٥٠ وابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص.٢٤٨.

(٥) نفسه، ص.٦٦-٦٨.

(٦) نفسه، ص.٧١ وسعدون عباس نصر الله، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص.١٠٦-١٠٨.

(٧) تتبع سعدون تفاصيل ضم المدن والمماليك الأندلسية وحدد التواريخ الدقيقة لذلك ومآل حكامها ودور العامة في سقوطها، المرجع السابق، ص.١١٧-١٣٦.

(٨) نفسه، ص.١٤٠-١٤١.

(٩) ابن القاضي أحمد المكناسي، **جذوة الاقتباس**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣، ج٢، ص.٤٦١ وسلامة محمد سليمان الهدفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٥، ص.١٤٤-١٤٩.

(١٠) نفسه، ص.١١٣.

(١١) نفسه، ص.١٦٧.

(١٢) نفسه، ص.١٦٤ وحسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، درا الفكر العربي، القاهرة، ص.٣٤٢ و٣٤٨ وأشباح يوسف، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦، ص.٢٣٤-٢٣٥ و٢٣٧.

(١٣) المراكشي عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩، ص. ١٧٣ و١٩٤.

(١٤) سعدون، المرجع السابق، ص.١٦٧ ومحمود، المرجع السابق، ص. ٣٦٠.

(١٥) عنان محمد عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، العصر الثالث، عصر المرابطين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠، ص.٥٣.

(١٦) ابن الخطيب لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق يوسف على الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ج٣، ص.٣٩٩-٤٠٠.

(١٧) نفسه، ص.٤٠٠.

(١٨) عنان، المصدر السابق، ق٣، ص.٥٣.

(١٩) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج٣، ص.٤٠٠.

(٢٠) شوقي ضيف، **عصر الدويلات والإمارات بالأندلس**، دار المعارف، القاهرة، ص.٤٠٥-٤٠٦ وسعدون، المرجع السابق، ص.١٦٩ وابن خاقان الفتح، **قلائد العقيان**، تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٧٩، ص.٣٠٥ وابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ج٤، ص.٦٠ وعنان، المرجع السابق، ق٣، ص.٥٣ ودندش عصمت عبد اللطيف، **أضواء جديدة عن المرابطين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ص.٥٠١.

(٢١) المراكشي، المصدر السابق، ص.١٩٤.

(٢٢) ابن بشكوال أبو القاسم، **الصلة**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٠، ج٢، ص.٢٠٤ والعباس بن إبراهيم المراكشي، الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣، ج٤، ص.٤٩.

(٢٣) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص.٤٤٢.

(٢٤) ابن خاقان، قلائد، ص.٣٢٢.

(٢٥) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص.٤٤٢.

(٢٦) نفسه، ص.٤٠٩ وابن بسام الشنتريني، **الذخيرة السنية في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧، ق٣، ٧٨٧ وابن خاقان، قلائد، ص.٥١٩.

(٢٧) ابن بسام، المصدر السابق، ق٣، ص.٧٨٦-٧٨٧.

(٢٨) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص.١٧٣.

(٢٩) شوقي، المرجع السابق، ص.٤١٠-٤١١.

(٣٠) ابن عذاري، المصدر السابق، ج٤، ص.٨٧-٨٨.

(٣١) شوقي، المرجع السابق، ص.٤١١.

(٣٢) نفسه، ص.٣٤٤ وابن بسام، المصدر السابق، ق٢، ص.٦٦٨.

(٣٣) نفسه.

(٣٤) المراكشي، المصدر السابق، ص.١٩٤.

(٣٥) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص.٤٨٩.

(٣٦) ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة (ط.٤)، ج١، ص.٣٧٤.

(٣٧) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص.٤٨٩.

(٣٨) العباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.٨٢ والمراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص.١٧٣.

(٣٩) ابن سعيد، المصدر السابق، ج١، ص.٢٤١.

(٤٠) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص.١٧١.

(٤١) ابن الأثير عز الدين، **الكامل في التاريخ**، مراجعة محمد يوسف الزقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ج٩، ص.٩٩ والنويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تحقيق أبو ضيف مصطفى، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص.٣٩١.

(٤٢) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ج١، ص.١٧٤.

(٤٣) المرادي الحضرمي، **السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ص.٢٢.

(٤٤) ابن بشكوال، المصدر السابق، ٢، ص.٢٠٤.

(٤٥) نفسه.

(٤٦) عنان، المرجع السابق، ق٣، ص.٧٨-٧٩.

(٤٧) الحلل الموشية، ص.٨١. وتقول الرواية أن فقيها قدم ليوسف كتابا يقول إن اليهود تعهدوا للرسول بالإسلام بعد مرور خمسمائة سنة إذا لم يظهر المسيح الذي يدعون ظهوره.

(٤٨) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢١١-٢١٢ والنباهي، **تاريخ قضاة الأندلس**، تحقيق لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣، ص.٩٨ والعباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.٤٤ و٥٥.

(٤٩) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢١٢-٢١٣ والنباهي، المصدر السابق، ص.٩٨.

(٥٠) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣، السفر ٦، ص.٣٠٦-٣٠٨.

(٥١) النباهي، المصدر السابق، ص.٩٩ والعباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.٥٥-٥٦ **والحلل الموشية**، ص.٩٠

(٥٢) العباس المراكشي، ج٤، ص.٥٥.

(٥٣) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢١٣ والنباهي، المصدر السابق، ص.٩٩.

(٥٤) ابن خاقان، **مطمح الأنفس**، تحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ص.٢٩٧-٢٩٨ وقلائد، ج٢، ص.٦٩٢ وابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢٢٧ والنباهي، المصدر السابق، ص.١٠٥.

(٥٥) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢٢٨ والنباهي، المصدر السابق، ص.١٠٦ والعباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.١٠٠.

(٥٦) نفسه، ص.٢٢٧ ونفسه، ص.١٠٥ ونفسه، ج٤، ص.٩٥.

(٥٧) نفسه، ص.٢٢٨ ونفسه ونفسه.

(٥٨) نفسه ونفسه ونفسه وابن سعيد، المصدر السابق، ج١، ص.٢٥٥.

(٥٩) العباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.٩٦.

(٦٠) نفسه، ص.٩٧-٩٨ وابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢٢٨ والنباهي، المصدر السابق، ص.١٠٥-١٠٦.

(٦١) نفسه، ص.٩٦. ونفسه ونفسه.

(٦٢) نفسه، ص.١٠٠. ونفسه ونفسه، ص.١٠٦.

(٦٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص.٢٥٠.

(٦٤) النويري، المصدر السابق،١٩٨٤، ص.٣٩٠.

(٦٥) عنان، المرجع السابق، ق٣، ص.٤١ والعبادي، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص.١٠١-١٠٢ وسعدون، المرجع السابق، ص.١٥٦.

(٦٦) الكتاني محمد عبد الحي، **نظام الحكومة النبوية**، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت (ط.٢)، ص.٨٥.

(٦٧) أعراب سعيد، **مع أبي بكر بن العربي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧، ص.٥٢.

(٦٨) نفسه، ص.١٩١-١٩٢.

(٦٩) ابن خاقان، مطمح، ص.٢٩٨.

(٧٠) أعراب، المرجع السابق، ص.٣٧.

(٧١) نفسه، ص.٥٨-٧٠.

(٧٢) النباهي، المصدر السابق، ص.١٠٦.

(٧٣) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢٦١-٢٦٢.

(٧٤) المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ج٣، ص.٤٧٩.

(٧٥) نفسه.

(٧٦) الحلل الموشية، ص.١٠١.

(٧٧) **عبد الحميد بن يحيى** فارسي الأصل عربي الولاء، نشأ في الأنبار أو الشام، وعمل في ديوان الرسائل في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ورافق مروان بن محمد في ولايته في أرمينيا وأذربجان، ثم صار كاتبه الأول لما تولى الخلافة. وقتل مع خليفته لما استولى العباسيون على السلطة.

(٧٨) ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص.٣٠٨ والجهشياري محمد بن عبدوس، **الوزراء الكتاب**، تحقيق إبراهيم الأبياري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨، ص.٧٤.

(٧٩) نفسه، ص.٣٠٨-٣٠٩ ونفسه، ص.٧٤-٧٥.

(٨٠) نفسه، ص.٣٠٧.

(٨١) المرادي الحضرمي، المصدر السابق، ص.٣٣.

(٨٢) عنان، المرجع السابق، ق٣، ص.٥٤ وحسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص.٣٦٠.

(٨٣) يقول إبراهيم حركات عن ذلك: "إن اختيار هذه الشخصيات كان يهدف إلى الاسترشاد بخبرتها في سياسة الأندلس، وخاصةً لأن أغلبهم إن لم نقل كلهم سبق لهم أن عملوا إلى جانب ملوك الطوائف، وعرفوا من خفايا الأحوال بالأندلس ما كان يجهله المرابطون"، **المغرب عبر التاريخ**، ج١، ص.١٩٠.

(٨٤) الحلل الموشية، ص.٤٩.

(٨٥) سعدون، مرابطون، ص.١٦٨-١٦٩.

(٨٦) قد يكون للصدفة دور في ذلك، لكننا لا نستبعد مكر السياسة.

(٨٧) لما اتهم عبد الله بن حاتم الطليطلي بالتجديف في منتصف القرن (٥٥/١١م) وسجلت الشهادات عليه، وأصدرت مدن أندلسية عدة رأيها في موضوعها، أرسل قاضي طليطلة بني ذي النون الحكم الصادر ضده ورأي باقي المدن لتسجل في قرطبة بني جهور حتى تكسب المصداقية ويلتزم بها الجميع. وفي هذا دليل على حفاظ قرطبة على صدارة القضاء حتى في ظل الانقسام الطائفي. انظر محمد حقي، **التجديف في الأندلس**. مجتمع يحمي مقدساته، ضمن كتاب "**الأزمات والهشاشة بالمغرب**"، تنسيق مصطفى نشاط وآخرون، مطابع الرباط نت، الرباط، ٢٠١٩، ص.٩١-٩٢.